ينبع

موطن آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه
ومنفذ المدينة النبوية وميناء الحج الثاني
- دراسة تاريخية -

إعداد

الشريف محمد بن حسين الحارثي

باحث تاريخي

ومشرف تربوي بتعليم العاصمة المقدسة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ،ومن سار على سنته إلى يوم الدين.

الموقع الجغرافي والنشأة التاريخية:

ينبع بالفتح ثم السكون وضم الموحدة التحتية، وعين مهملة، مضارع نبع، ونبع الماء: ظهر. وسميت ينبع بذلك لكثرة ينابيعها. قال الشريف سلمة بن عياش الينبعي: عددت بها مئة وسبعين عيناً.(١) وتقع على خط عرض (٦ـ٢٤) شمالاً، وخط طول(٣ ـ ٣٨) شرقاً.(٢) وتلك ينبع الميناء أو الثغر البحري أو ماتسمى حديثاً "ينبع البحر" التي لاتبعد كثيراً عن "ينبع النخل"، وفي الفترة الإسلامية المبكرة كانت الأحداث ترتبط أكثر بينبع النخل، ومن العهد الأيوبي وما بعده ارتبطت الأحداث بينبع البحر والنخل على السواء حتى نهاية العهد المملوكي. وما إضافة البحر إلا للتفريق وإن كانتا لا تختلفان في القبائل والعادات والتاريخ المشترك، وتمثل ينبع النخل الجزء الأعلى من المدينة، وينبع البحر تشكل الجزء الأدنى منها، وينبع البحر جزء أصيل من ينبع النخل وما المسافة الموجودة بينهما اليوم إلا مناطق العيون التي اندثرت معالمها، ومما يؤكد تلاحمهما وأنهما بلدة واحدة قول العباس بن الحسن للرشيد:

ياوادي القصر نعم القصر والوادي * من منزل حاضر إن شئت أو بادي

تلقى قراقيره بالعقر واقفـــة * والضب والنون والملاح والحادي

فجمع الشاعر بين السفن ومرفأها والملاح، وحادي الإبل (والضب صيد البر والنون صيد البحر). (٣)

ويحددها عرام السلمي (المتوفى في القرن الثالث) على أنها يمين رضوى الجبل ،ويصفها بأنها قرية كبيرة غناء، سكانها من الأنصار وجهينة وليث وفيها عيون.(٤)

١-الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، ص٤٤٠، وانظر السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، ج٤، ص١٣٣٤.

٢-محمد أحمد الرويثي: الموانئ السعودية على البحر الأحمر ،ص٢٩٨.وانظر: خريطـــة "ينبع" التخطيطية : ٥٠٠,٠٠١، لوحة رقم SW ـ NG٣٧ ، طبعت عام١٤٠٤هـ وزارة البترول والثروة المعدنية، وخارطة طرق المواصلات: ١ : ٣٠٠٠,٠٠٠ وزارة المواصلات.

٣-الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٢١ـ٢٢.وعبدالكريم محمود الخطيب: تاريخ ينبع، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥، مطابع الشرق الأوسط، الرياض، ص١٢.

٤-أسماء جبال تهامة وسكانها: ص٨.

ويصفها الإصطخري (ت٣٤٠) بأنها حصن به نخل وماء وزروع، و بها وقوف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يتولاها أولاده، ويصف جبل رضوى بأنه أخضر ويرى من ينبع.(٥)

وقد أقطع النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه أربع أرضين في ينبع هي الفقيرين وبئر قيس، والشجرة، وأقطعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبع مضافة إلى غيرها. وينسب إلى كُثِّير قوله:

أهاجتك سلمى أم أجد بكورها * وخفت بأنطاكي رقم خدودها

على هاجرات الشول قد خف خطرها * وأسلمها للضاعنات حضورها

قوارض حفني بطن ينبع خطرها * قواصد شرقي العناقين عبرها

وممن ينسب إلى ينبع أبو عبدالله حرملة المدلجي له صحبة ورواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.(٦)

ومن أبرز من نسب إلى ينبع من التابعين عبدالله بن الحسن (٧)بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو محمد تابعي من أهل المدينة كان ذا عارضه وهيبة ولسان وشرف، وكانت له منزلة عند عمر بن عبدالعزيز، ويقول الخطيب البغدادي مارأيت أحداً من علمائنا يكرمون أحداً مايكرمون عبدالله بن حسن، وعنه روى مالك الحديث، ويضيف أن لعبدالله بن الحسن رواية عن أبيه وعن أمه فاطمة بنت الحسين، ويروي عنه سوى مالك عبدالعزيز بن محمد الداراوردي والمنذر بن زياد الطائي. أنجب من الأبناء من كان لهم أثر بارز في العالم الإسلامي أمثال محمد (النفس الزكية) وأخوه إبراهيم ومن عقبه بعض أشراف ينبع اليوم.

وكذلك من الأبناء يحيى الذي خرج في عهد الرشيد، وسليمان الذي قتل بفخ وإدريس الذي هرب إلى المغرب ومن عقبه الأشراف الأدارسة، وموسى الذي من عقبه جُل أشراف الحجاز اليوم. وقد ولد عبدالله بن الحسن سنة ٧٠، وتوفي في سجن أبي جعفر المنصور في الكوفة سنة ١٤٥هـ.(٨).

ومن الشعراء العباس بن الحسن من أهل القرن الثاني الهجري ومحمد ابن صالح الحسني من أهل القرن الثالث الهجري. ومنهم أمير ينبع أبوهاشم محمد بن الحسين الأمير بن محمد الثائر، وابنه عبدالله جد الأشراف الهواشم الأمراء حكام مكة من منتصف القرن الخامس إلى السادس الهجري، ومن الجغرافيين مسعر بن مهلهل الخزرجي من أهل القرن الرابع الهجري، وكذلك الشريف قتادة الذي تُنسب إليه الطبقة الرابعة من الأشراف أمراء مكة في القرن السادس الهجري حتى الرابع عشر الهجري، وجُل أشراف ينبع اليوم من ذريته.(٩)

ومن علماء ينبع "محمد بن أبي بكر بن عبدالعزيز بن محمد أبوعبدالله عزالدين الكناني" ولد في ينبع عام ٧٤٩هـ وعُرف باسم "ابن جماعة" من تلاميذ ابن خلدون اشتهر بعلم اللغة والبيان والأصول.(١٠) ويتوسع عبد الكريم الخطيب في الحديث عنه نقلاً عن ابن خلدون الذي التقى ابن جماعة في ينبع عام (٧٨٩هـ) والمقريزي والسيوطي بأن ابن جماعة عالم متفنن متكلم جدلي نظار نحوي لغوي

٥- المسالك والممالك: ص٢٥، وانظر ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٢.

٦- الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، ص٤٤٠،وانظر السمهودي:وفاء الوفاء، ج٤، ص١٣٣٤.

٧-ظهر مؤلف جديد وقيم عن "عبدالله بن الحسن" بعنوان: "أخبار المحدث الفقيه أبي محمد عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب" لأبي هاشم إبراهيم بن منصور الهاشمي الأمير،الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ٢٠٠٤م.

٨-أحمد بن علي أبوبكر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٩، ص٤٣١ـ٤٣٢، وانظر الأعلام للزركلي، الطبعة الرابعة عشر، ١٩٩٩، دار العلم للملايين، بيروت، ج٤، ص٧٨، وانظر حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص١٣٧ ، ١٣٨.

٩-حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص١١.

١٠-حمد الجاسر : بلاد ينبع، ص١١٨.

بياني أخذ عن السراج الهذلي والضياء القرحي، وابن خلدون والتاج السبكي وأخيه البهاء وغيرهم، وله من المؤلفات الكثير، وبرز في الحكمة والطب وصناعة النفط والكيمياء، وكان يجله كثيراً ابن خلدون ، وتوفي بالقاهرة عام ٨١٩هـ ذلك هو محمد بن جماعة الينبعي.(١١) وممن ينسب إلى ينبع مولداً تقي الدين ابن دقيق العيد (محي الدين أبي الحسن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري النسب، المنفلوطي الأصل الينبعي المولد، القصصي المربي القاهري المنزل) وكان مولده بينبع في الخامس والعشرين من شعبان سنة ٦٢٥هـ وتوفى سنة ٧٠٢هـ اشتهر بمعرفته الواسعة للفقه والأسانيد والمتون، وتولى الافتاء في المذهبين المالكي والشافعي وأقرأ الحديث بالكاملية، وتولى قضاء قضاة الشافعية بمصر (١٢).

أما قرى ينبع فقد ارتبطت بكثير من الأحداث التاريخية الهامة على مدار الفترة الإسلامية خاصة المبكرة منها.

ومن أهم هذه القرى:

١ ـ البغيبغة : بإعجام الغينين تصغير البغبغ، وهي البئر القريبة الرشاء، ولما صارت ينبع لعلي رضي الله عنه جعل عيون البغيبغات صدقة على المساكين وابن السبيل، وارتبطت بهذه القرية أحداث سياسية في عهود مختلفة.

٢ ـ البليدة: قرية لآل علي.

٣ ـ سويقة : تصغير ساق، يسكنها آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي أيضاً عين عذبة كثيرة الماء. وارتبطت أيضاً بأحداث سياسية عرّضتها لكثير من الاضطرابات بل إلى الحرق في عدة مرات وعقر نخلها وتخريب منازلها.

٤ ـ العشيرة: تصغير عشرة من العدد، أو تصغير عُشَرَة واحدة العشر للشجر المعروف، وهي حصن صغير يُفضل تمره على سائر تمور الحجاز، وفي هذا المكان كانت غزوة العشيرة على زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي الوقت الحاضر تغير اسمها إلى القرية أو "القريّة" تصغير قرية.(١٣)

٥ ـ العلقمية: ارتبطت هذه القرية بأنها كانت موطن قتادة أمير مكة ومؤسس الطبقة الرابعة من الأشراف أمراء مكة من القرن السادس إلى الرابع عشر الهجري.(١٤)

٦–العيص :وادٍ من أشهر أودية الحجاز،الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وهو تابع الآن لمحافظة ينبع ، ويبعد عنها بحوالي ١٥٠كم، وسكانه من جهينة. وورد ذكره في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ، في صلح الحديبية عندما لجأ أبو بصير بن سهيل بن عمروٍ إلى هذا الوادي ليقطع الطريق على قوافل قريش، حتى قتل رضي الله عنه.(١٥)

وكذلك ما نُسب إلى ينبع من آثار نبوية – مزعومة – (شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومكحلة ومرود وقطعة من قميص للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيف من سيوفه، ومصحف لعثمان بن عفان رضي الله عنه وآخر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه نقلت إلى القاهرة في القرن السابع الهجري اشتراها الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير المملوكي من أسرة بني إبراهيم

---

[١١]– تاريخ ينبع، ص٩٢ ، ٩٣، وقد عاش ابن جماعة في ينبع ٤٠ عاماً وتلقي العلم فيها واتجه لمصر لمزيد من التعلم والتعليم حتى توفي بالقاهرة.

[١٢]–القاسم بن يوسف التجيبي السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتابـ ليبيا، ١٩٧٥م، ص١٦ـ٣٧.

١٣–الفيروز آبادي: المغانم المطابة ص ١٩٤/١٩١/٦٥/٥٩ والسمهودي: وفاء الوفاء، ج٤، ص١١٥٠/١١٥٥/١٢٣٩/١٢٦٦، وحمد الجاسر: بلاد ينبع، ص١٢ـ١٩، وانظر أحمد عبدالحميد العباسي: عمدة الأخبار في مدينة المختار، ص ٢٨٠/٣٢٠/٢٢٥/٢٢١.

١٤– المصادر السابقة ، ونفس الصفحات.

[١٥]–الفيروزآبادي: المغانم المطابة،ص٢٨٨،السمهودي: وفاء الوفاء،ج٤،ص١٢٧٠،حمد الجاسر: بلاد ينبع،ص٢٠١.

من بني الحسن بن علي بن أبي طـالب رضي الله عنهما من سكان مدينة ينبع(١٦) واستقرت هذه الآثار الآن في مسجد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما المزعوم وجود قبره بمصر(١٧).

أما ينبع البحر، فيضاف البحر للتفريق بينها وبين ينبع النخل؛ ولأنها تقع على ساحل البحر مباشرة، وهي ميناء المدينة، ورغم ماذكر من أنها قد عُرفت كميناء حتى قبل ميلاد المسيح عليه السلام وأنها كانت تسمى في كتب اليونان القديمة (RANE) أو (NEGRA) إلا أن ميناء الجار سبق ميناء ينبع على الأقل في الفترة الإسلامية المبكرة واكتسب شهرة كبيرة لم يكن لينبع الميناء وجود معه ولم يظهر ميناء ينبع إلا بعد انهيار واضمحلال الجار في أواخر القرن السادس الهجري، وعندما اختاره الأيوبيون عام ٦٢١هـ ميناءً رئيسياً للمدينة المنورة، ودفعوا ثمنه للأشراف الحَسنيين أصحاب ينبع، وعاود الأشراف الاستيلاء عليه وتنقلت السلطة على الميناء مابين الأشراف والأيوبيين والمماليك فيما بعد، وأصبح الميناء الثاني في الحجاز لنقل مؤن الحجاج، ومؤن عمارة الحرمين الشريفين بعد ميناء جُدة، وقد نشأ الميناء على نقطة تقع بين شرم ينبع في الشمال ومصب وادي الفرعة في الجنوب، ويقدر متوسط مابينهما (١٥كم) وبالتالي يصب في وادي ثمر، وهو بوابة المدينة المنورة، ومنفذ الحجاز الأوسط ويبعد شرم ينبع عن الميناء بحوالي ١٥كم شمالاً، وهو من المعالم الجغرافية الجميلة في ينبع، ويمتاز بمنظره الخلاب ومياهه الصافية، وتبرز حوله الصخور المرجانية، وهي بالتالي تساعد على حماية الشرم. وخليج ينبع لايزيد عرضه عن ٣ كم، وأضيق أجزائه ½ كم، وتنتشر فيه شعاب مرجانية وبينها جزر صغيرة، وانتشار الشعاب المرجانية في منطقة الميناء المائية ساهم في تمدد ممرات ضيقة نحو الشمال الشرقي والجنوب. ويتم الوصول إلى الميناء عن طريق قنال طوله ١٦٠٩م وعمقه ١٠,٣٦م. وساهم الموقع الطبيعي للميناء على تطور مهمة الميناء من مرحلة صيد إلى ميناء تجاري وعسكري من القرن السابع حتى القرن العاشر الهجري. (١٨)

ينبع في العهد النبوي:(على نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم):

من أولى الأحداث التي ارتبطت بينبع في هذا العهد المبارك (غزوة ودّان) التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم حيث خرج غازياً في شهر صفر حتى بلغ ودان وهي بجوار الأبواء، يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر ابن عبد مناة بن كنانه فوادعته فيها بني ضمرة، ووادعه مخشى بن عمرو الضمري، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، ولم يلق كيداً، وهي أول غزوة غزاها.(١٩) ويذكر عبدالكريم الخطيب أن ودان هذه قرية منورة الغربية من ينبع البحر.(٢٠)
كما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فلبث بها بقية شهر ربيع الآخروبعض جمادى الأولى.ورضوى كما سبق ذكره جبل بينبع.(٢١)

١٦- حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص١٤٥ ـ ١٤٦.

[١٧]- محمد قناوي: (المدينة في رحاب الآثار النبوية بالمسجد الحسيني) جريدة المدينة، العدد (١٣٠٨٣) السبت ١٤١٩/١٠/٢٧هـ والعدد (١٣٠٨٦) الثلاثاء ١٤١٩/١٠/٣٠هـ) والوزير:هو علي بن محمد بن سليم المصري (٦٠٣-٦٧٧) كان من أكابر رجال عصره حزما وعزما ، ولد وتوفي بمصر وعين وزيرا في عهد الظاهر واستمر في عهد ابنه سعيد حتى توفي .(انظر الزركلي : الأعلام ،ج٤،ص٣٣٣).

١٨- محمد الرويثي: الموانئ السعودية، ص٢٩٨ـ٢٩٩.

[١٩]- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، ١٩٧٥، دار الجيل، بيروت، ج٢، ص١٧٠ـ١٧١.

[٢٠]-تاريخ ينبع، ص١٨٥.

[٢١]-ابن هشام، السيرة النبوية،ج٢، ص١٧٦.مع العلم أن ودان وبواط ليستا بحريتين.

ومن الرايات التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبعض أصحابه باتجاه ساحل البحر الأحمر بهدف اعتراض قوافل قريش، سرية عبيدة بن الحارث، والتي عدها ابن هشام أول راية عقدها عليه الصلاة والسلام، وسار بها حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة.(٢٢)

ولقي بها جمعاً كبيراً من قريش إلا أنه لم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رمى فيها بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام.(٢٣).

وتلت هذه السرية سرية حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه إلى سيف البحر من ناحية العيص من المهاجرين، ولقي أبا جهل في ثلاث مئة راكب من أهل مكة إلا أن مجدي بن عمرو الجهني حجز بينهما، وكان موادعاً للفريقين، فلم يقع قتال. ٢٤

غزوة العشيرة:

نزل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العشيرة من بطن ينبع غازياً، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، من السنة الثانية للهجرة وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً في تلك الغزوة وقال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مالك يا أبا تراب؟ لما يرى عليه من التراب، فقد حدث عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة؛ فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقام بها؛ رأينا أناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم وفي نخل. فقال لي علي بن أبي طالب: يا أبا اليقظان، هل لك في أن نأتي هؤلاء القوم، فننظر كيف يعملون؟ قال: قلت: إن شئت؛ قال: فجئناهم، فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشينا النوم. فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في صدر من النخل وفي دقعاء من التراب فنمنا، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحركنا برجله. وقد تتربنا من تلك الدقعاء التي نمنا فيها، وبعد قوله يا أبا تراب قال: ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟ قلنا: بلى يا رسول الله؛ قال: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى يبل منها هذه. وأخذ بلحيته.(٢٥)

إلا أن وصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأبي تراب ورد في حديث سهل بن سعد. قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بيت فاطمة فلم يجد علياً في البيت. فقال: "أين ابن عمك؟" قالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج، فلم يَقِلْ عندي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإنسان: "انظر أين هو" فجاء، فقال: يا رسول الله ! هو في المسجد راقد. فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه ترابٌ. فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمسحه عنه، ويقول: "قم أبا تراب! قم أبا تراب" متفق عليه وأخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب نوم الرجال في المسجد.(٢٦)

---

[٢٢]-ثنية المرة بالكسر وتشديد الراء، قرب ماء يدعى الإحياء من رابغ، انظر السمهودي: وفاء الوفاء، ج٤، ص١١٦٧.

[٢٣]-ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٧١.

[٢٤]-ابن هشام، ج٢، ص١٧٤.

[٢٥]-ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢، ص١٧٦ـ١٧٧.

[٢٦]-محمد فؤاد عبدالباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج٣، ص١٣٣.

ينبع في العهد العباسي:

لعل أول وأهم الأحداث التي ارتبطت بالحجاز وأحد ثغوره (ينبع) في العهد العباسي "ثورة محمد بن عبدالله ذي النفس الزكية" رحمه الله. وهو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو عبدالله الملقب بالأرقط، وبالمهدي، وبالنفس الزكية، ولد ونشأ بالمدينة، وكان يقال له صريح قريش، لأن أمه وجداته لم يكن فيهن أم ولد.(٢٧)

ولما أعلن أبو العباس السفاح الخلافة عباسية رفض النفس الزكية مبايعته، ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة لم تكن له همة إلا طلب النفس الزكية والسؤال عنه، واختار أبو جعفر رجلاً من رجاله يقال له عقبة بن أسلم، أعده لمهمة كشف حقيقة ما يخبئه آل علي له، واستطاع عقبة هذا أن يأخذ ما أراد من عبدالله بن الحسن بالحيلة والدهاء وعرف منه أن ابنيه محمد وإبراهيم خرجا لطلب الخلافة، فنقل ذلك لأبي جعفر، وفي رحلة حج للمنصور سجن عبدالله بن الحسن، ولم يكتف بذلك بل بعث عيناً له وكتب معه كتاباً على ألسنة الشيعة، إلى محمد يذكرونه طاعتهم، ومسارعتهم، وبعث معه بمال وألطاف، فقدم الرجل المدينة، فدخل على عبدالله بن حسن فسأله عن محمد فذكر له أنه في جبل جهينة (أي جبل رضوى بينبع) وقال: امرر بعلي بن حسن، الرجل الصالح، الذي يدعى الأغر وهو بذي الإبر، فهو يرشدك، فأتاه فأرشده. ولكن كان لأبي جعفر كاتب على سره متشيعاً، فكتب إلى عبدالله بن حسن بأمر ذلك العين، وما بُعث له، فقدم الكتاب على عبدالله، فارتاعوا وبعثوا أبا هبار إلى علي بن الحسن وإلى محمد ليحذرهم الرجل، فخرج أبو هبار حتى نزل بعلي بن حسن، فسأله فأخبره أن قد أرشده اليه، قال أبو هبار: فجئت محمد إلى موضعه الذي هو به، فإذا هو جالس إلى كهف معه عبدالله بن عامر الأسلمي، وابني شجاع وغيرهم، والرجل معهم أعلاهم صوتاً، وأشدهم انبساطاً، فلما رآني ظهر عليه بعض النكرة، فجلست مع القوم، فتحدثت ملياً، ثم أصغيت إلى محمد، فقلت: إن لي حاجة فنهض، ونهضت معه فأخبرته بخبر الرجل، فاسترجع، وقال: فما الرأي؟ فقلت: إحدى ثلاث أيها شئت فافعل، قال: وما هي؟ قلت، تدعني فأقتل الرجل قال ما أنا بمقارف دماً إلا مكرهاً: أو ماذا؟ قلت توقره حديداً تنقله معك حيث انتقلت قال: وهل بنا فراغ له من الخوف والإعجال: وماذا؟ قلت تشده، وتوثقه وتودعه بعض أهل ثقتك من جهينة. إلا أن هذا الرجل عين أبي جعفر هرب منهم وأبلغ المنصور بأمرهم. واشتد طلب المنصور لمحمد بن عبدالله، وخرج إلى محمد النفس الزكية والي ينبع من قبل المنصور بالخيل والرجال، فهرب النفس الزكية من جبل رضوى، وأثناء ذلك أفلت له ولد صغير من الجبل فتقطع.

ولما حج المنصور سنة ١٤٤هـ وفي عودته من الحج أخذ معه بني الحسن وجعلت القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وكان يراقب هذا الموقف جعفر الصادق من وراء ستر وهو يبكي ودموعه تجري على لحيته وهو يدعو الله ثم قال: والله لايحفظ الله حرميه بعد هؤلاء، وكان محمد وأخوه إبراهيم يأتيان إلى أبيهما ويستأذنانه بالخروج ويقول لاتعجلا حتى يمكنكما ذلك. وسجنهم المنصور بقصر ابن هبيرة شرقي الكوفة، وأحضر المنصور محمد بن ابراهيم بن الحسن ـ وكان أحسن الناس صورة. فقال له: أنت الديباج الأصغر: قال: نعم قال: لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً ثم أمر به فبنى عليه اسطوانة وهو حي فمات فيها، وكان ابراهيم بن الحسن أول من مات منهم، ثم عبدالله بن الحسن. وذكر أن المنصور أمر بقتلهم وقيل بل سقوا سماً.

---

[٢٧]-ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص١٢، وابن الطقطقا: محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر ـ بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، ص١٦٥ـ١٦٦، وانظر الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٢٢٠.

دفعت هذه الأحداث، وإلحاح المنصور في طلبه محمداً أن يخرج فخرج قبل وقته الذي فارق عليه أخاه إبراهيم، فأنكر ذلك، ولكن إبراهيم تأخر عن وقته لجدري أصابه، وقد خرج في أول يوم من رجب (١٤٥هـ) وفي رواية لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، واستطاع السيطرة على المدينة.

كلف أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى بقتال النفس الزكية وقال: لا أبالي أيهما قتل صاحبه، وأرسل معه ٤٠٠٠ من الجند وكتب إلى عيسى بن موسى من لقيك من آل أبي طالب فاكتب إلى باسمه ومن لم يلقك فاقبض ماله، فقبض عين أبي زياد "في ينبع"، وكانت لجعفر بن محمد "الصادق"، فلما قدم على أبي جعفر كلمه جعفر، قال: مالي قال: قد قبضه مهديكم.(٢٨)

ينبع في العهد الأيوبي:

ومن قرية العلقمية بينبع ظهر مؤسس الطبقة الرابعة من أمراء مكة الأشراف في العام ٥٩٧هـ (الشريف قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ويكنى أبا عزيز الينبعي المكي) وكان هو وأهله يسكنون العلقمية من ينبع، وأصبح في قومه رئيساً، فجمعهم، وأركبهم الخيل، وحارب الأشراف بني حراب، من ولد عبدالله بن الحسن بن الحسن، وبني علي، وبني أحمد، وبني إبراهيم. ومن دوافع توجهه إلى مكة ما وصله من أخبار بني عمه الهواشم بني فليتة من انهماكهم في اللهو، وتبسطهم في الظلم، وأعد نفسه وقومه وتوجه إلى مكة وقيل إنه لم يذهب بنفسه بل بعث ابنه حنظلة فملك مكة، وخرج منها مكثر بن عيسى بن فليته آخر أمراء مكة من الهواشم (وهم الطبقة الثالثة).

وكان قتادة مهيباً، وقوراً قوي النفس شجاعاً مقداماً، فاضلا وله شعر، ومن شعره عندما طلبه الخليفة العباسي الناصر أن يُقدم عليه ببغداد وافق في أول الأمر ثم تراجع خشية أن يُغدر به:

ولي كف ضرغام أصول ببطشها ∴ وأشري بها بين الورى وأبيـــع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرهــا ∴ وفي بطنها للمجـــدبين ربيـع
أأجعلها تحت الثرى ثـــم أبتغـي ∴ خلاصاً لها ؟ إني إذاً لرقيـــع
وما أنا إلا المسك في كل بلـــدة ∴ أضوع وأما عندكم فأضيـــع

ويذكر ابن الأثير أن ولايته اتسعت من حدود اليمن إلى المدينة، وله قلعة بينبع ، وأكثر من العسكر والمماليك، وخاف العرب في تلك البلاد منه خوفاً عظيماً، وكان أول ملكه حسن السيرة، فقد أزال عن مكة العبيد المفسدين، وحمى البلاد، فأحسن إلى الحجاج وأكرمهم، إلا أنه بعد ذلك وفي آخر أيامه ساءت سيرته، وتوفي في ٦١٧ أو ٦١٨هـ في شهر جمادى الأولى أو الآخرة.(٢٩)

وفي العام ٦٢١هـ وفي خضم التنافس بين حكام مصر وحكام اليمن على مكة اشترى الأيوبيون في مصر ينبع من الأشراف بني الحسن وقصدوا بذلك الإشراف المباشر على ميناء ينبع، وقدر المبلغ الذي تم دفعه للأشراف بأربعة آلاف مثقال، ولم تزل بأيدهم إلى سنة

٢٨- الطبري: الأمم والملوك، ج٤، ص٤٠٢ـ٤١٢ (أحداث سنة ١٤٤). وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣٧٤ـ٣٧٦. الطبري: الأمم والملوك، ج٤، ص٤٢٢ ـ ٤٢٣. ، ج٤، ص٤٣٧).

٢٩- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٤٥ حوادث سنة ٦١٨هـ ،وانظر ابن عنبه: عمدة الطالب، ص١٦٦، وانظر تاريخ ابن خلدون، ج٤ ص١٣٤ـ١٣٦، الفاسي: العقد الثمين، ج٥، ص٤٦٣ـ٤٧٥، وانظر عبدالعزيز بن فهد، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج١،ص٥٥٠ـ٥٥٥، وانظر عبدالملك بن حسين وانظر العصامي: النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ١٣٧٩، المطبعة السلفية، القاهرة، ج٤، ص٢٠٧ـ٢١٤،وانظر: السنجاري: منائح الكرم، ج٢، ص٢٦٦ـ٢٦٩ وانظر: الدحلان: خلاصة الكلام، ص٢٣ ،وانظر سنوك: صفحات من تاريخ مكة، ج١، ص١٧٣ـ١٧٦، وانظر: السباعي: تاريخ مكة، ص٢٢٤ـ٢٢٧.

٦٣٠هـ وأقاموا فيه بعض الإنشاءات، ورغم استعادة الأشراف السيطرة على الميناء إلا أن الأيوبيين استرجعوه وبنوا فيه قلعة حصينة ووضعوا فيه عسكراً لحمايته، وبالتالي أصبحت ينبع الميناء سيدة الأحداث القادمة، اُتخذت الميناء الرئيسي للمدينة وأصبحت في المرتبة الثانية بعد جُدة. وبالرغم من سيطرة الأيوبيين بقيت ينبع ملاذاً لأمراء مكة في صراعاتهم الداخلية، فكانت أحياناً تؤوب إليها الأحداث من مكة، وأحياناً تنطلق منها بخروج أمير من بني الحسن منها أو بدخول أمير من بني الحسن إليها.. وفي سنة ٧٠٠هـ نال ينبع خيراً عندما نزل بها الأمير بكتمر الجو كندرا وأنفق في حجته خمسة وثمانين ألف دينار، فقد جهز سبعة مراكب في البحر الأحمر تحمل الغلال والدقيق وأنواعاً من العسل والسكر والزيت والحلوى وغير ذلك، وعند وصوله ينبع وصل من هذه المراكب ثلاثة ففرق كثيراً من محتوياتها بين الحجاج الذين يمرون ينبع بحراً أو براً، وكذلك نال أهل ينبع منها نصيبٌ، وكذلك فعل في جُدة ومكة، ولم ينس أيضاً حجاج الشام.(٣٠)

ينبع في العهد المملوكي:

وفي العام ٧٩٢هـ وفي خضم صراع الشريف عنان من أجل الوصول إلى الإمارة، وفي طريق عودته من مصر يرافقه مندوب تركي من السلطان لتقليده الإمارة بمكة مر بينبع، فشجعه أمير ينبع وبير بن مخبار على مشاركته في قتال بني إبراهيم حتى انتصروا عليهم، فتوجه عنان بعد ذلك إلى مكة.(٣١)

وفي العام ٧٩٤هـ عين الشريف علي بن عجلان أميراً على مكة، لكن الأشراف بمكة كانوا على خلاف معه ولم يساندوا إمارته، فتركوا مكة عام ٧٩٥هـ إلى بحرة قرب جُدة فلحقهم على بن عجلان إلى بحرة فرحلوا إلى جُدة أملاً في أن يستولوا على مركب سلطاني قادم من مصر، فلما علم بذلك اضطر إلى إعطائهم ٤٠٠ غرارة قمح فلم يرضوا فزادهم مائة أخرى فرضوا وخرجوا من جُدة. وأدت هذه الصراعات إلى تضعضع الأمن في مكة وجُدة فما كان من التجار إلا أن نقلوا تجارتهم إلى ميناء ينبع.(٣٢)

وفي ينبع وفي سنة ٧٩٨هـ اضطر أميرها وبير بن مخبار إلى تسليم مبلغ ثلاثين ألف درهم مقابل ما استولى عليه من القمح وغيره إلى الشريف حسن بن عجلان الذي قدم من مصر وبرفقته جماعة من الترك ليقلدوه الإمارة في مكة بعد أن هدد أمير ينبع بالحرب.(٣٣)

وفي سنة ٨٠٩ تم القبض على عامل جُدة جابر الحراشي بأمر من أمير مكة، فصودرت أمواله وسجن بمكة، ثم أُخرج من السجن بشفاعة صاحب صنعاء، وأعيد إليه جزء من ماله، وتوجه إلى اليمن، وذكر النجم ابن فهد أن مكاسب أمير مكة من التجار والحراشي بلغت قرابة ٤٠,٠٠٠ مثقال.

وفي نفس العام في شهر رمضان وصل أميرا ينبع الشريفان وبير ومُقبل ابني مخبار إلى أمير مكة حسن معلنين ولاءهما له، وزال مابينهم من خلاف. وفي عام ٨١٢هـ عاد ولاؤهما له، وزال مابينهم من خلاف. وفي عام ٨١٢هـ عاد الحراشي إلى الأحداث وسعى جاهداً للانتقام من حسن بن عجلان بالذهاب إلى مصر وتشجيع السلطان على عزله إلا أن سعيه باء بالفشل، وأثناء عودته من مصر مع الحاج سكن ينبع وتقرب إلى ولاتها، وبنى لهم بها قلعة وسوراً ورغم ما اكتسبه من مال لكنه ما زال يرغب في العودة إلى مكة.

---

[٣٠]-المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٣٧، والنجم عمر بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٩. وانظر حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص٤٩. المقريزي: السلوك،ج٢، ص٣٤٢،و ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص١٣٢.

[٣١]-الفاسي: العقد الثمين، ج٥، ص٤٢١، وابن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٧٧.

[٣٢]-ابن فهد: إتحاف الورى: ج٣، ص٣٨٨-٣٨٩، الدحلان: خلاصة الكلام، ص٣٦.

[٣٣]-الفاسي: العقد الثمين: ج٣، ص٣٤٩، ابن فهد: إتحاف الورى: ج٣، ص٣٩٨.

وفي العام ٨١٥هـ غضب أمير مكة من جابر الحراشي وسعى إلى إخراجه من ينبعَ لما بلغه من أنه يشجع حاكم اليمن على صرف المراكب من ميناء جُدة إلى ميناء ينبع، فكان أن خرج الحراشي من ينبع إلى مصر وأخذ يحرض السلطان المملوكي على أمير مكة حسن ابن عجلان فلم تنجح محاولته وأُعيد إلى الحجاز برفقة الحاج مكبلاً بالحديد فعفا عنه أمير مكة، بل وفوض إليه أمر جُدة مرة أخرى.

ونال ينبع كذلك نصيبٌ من هذه الصراعات ومن ذلك ما حصل عام ٨٢٥هـ عندما نزل الأمير جانبك الخازندار ينبع في شهر ذي الحجة لقتال الشريف مقبل أمير ينبع، وبرفقته عقيل بن وبير الحسني الذي منحه السلطان إمرة ينبع، واضطر مقبل بقبول عقيل شريكاً له في الإمارة، فما أن غادر الحاج ينبع حتى عاد القتال بين الأميرين، وانتصر مقبل على عقيل ابن أخيه، ولما عاد الحاج إلى ينبع هاجم المماليك الأمير مقبل، وقتل في ذلك جماعة من الأشراف من بني حسن وكثر السلب والنهب في ينبع في الأشراف وغيرهم، وما إن خرجوا من ينبع حتى عاد مقبل لقتال ابن أخيه عقيل على الإمارة إلا أنه لم يتمكن من ذلك وهزم في عام ٨٢٨ وحمل الشريف مقبل في الحديد إلى الإسكندرية وسجن بها.(٣٤)

وما زالت ينبع منطلقاً لبعض الأحداث، فتقبل إليها الأحداث وتدبر فتحل في مينائها حملات الحجيج ويصطدم أمراؤها بأمراء الحج فيسيرون معهم أو يسيرون ضدهم، ومازالت ملاذاً لأمراء مكة والثائرين من أشرافها، فلا يمر عام دون أن يكون هناك ذكر لينبع في أحداث الحجاز الداخلية. وفي العام ٨٢٧هـ وصل أمير الحاج المصري الأمير قرقماس في ربيع الأول إلى ينبع يحمل أمراً بعزل حسن بن عجلان وتولية علي بن عنان وأشرك معه أهل ينبع والصفراء والمدينة فالتقى بهم الأمير الجديد في ينبع ودخلوا مكة في جمادى الأولى وتوجه الأمير الجديد إلى جُدة لملاطفة التجار القادمين إليها وتشجيعهم على الرسو في ميناء جُدة.(٣٥)

وفي العام ٨٧٢هـ عادت ينبع إلى واجهة الأحداث معلنة بداية صراعات مسلحة وأحداث سياسية متلاحقة، عندما قتل سبع وسّباع ولدا هجار من أمراء ينبع، ويشير ابن فهد إلى أنهما قتلا في صراع مع قطاع طرق للحج، ويذكر ابن إياس أن أمير ينبع خنافر بن وبير قتلهما، فكانت تلك الحادثة بداية سلسلة من الصراعات انطلقت من ينبع.

وفي عام ٨٧٥هـ أقر السلطان الأشرف قايتباي في إمرة ينبع الشريف سبع بن خنافر. ونال هذا الشريف أيضاً خِلَع السلطان عام ٨٨٣هـ وتقرير ما له في إمارة ينبع.(٣٦)

ففي ينبع قام الأمير دراج (من نسله الأشراف ذوي هجار القاطنين بينبع النخل إلى الوقت الحاضر) بدور نبيل في حفظ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من عبث أميرها حسن بن الزبير الذي تهجم على مخزون الحجرة الشريفة، ودخل المدينة في شهر ربيع الأول من عام ٩٠١هـ وسيطر على الأوضاع بالمدينة واطمأن الناس بوصوله إليها.

إلا أن هذا الأمير دراج توفي عام ٩٠٢هـ وتنازع أبناؤه على إمرة ينبع فبرز منافس قوي من الأشراف لأبناء دراج على الإمارة فتح باباً لصراع سياسي وعسكري فترة من الزمن هو يحيى بن سبع، وبالرغم من توليه الإمارة في جمادى الآخرة من عام ٩٠٣هـ إلا أن ذلك لم يصدر من السلطان المملوكي إنما من أمير مكة فحمل هذا الأمير الينبعي على المماليك ودخل معهم في صراع مسلح مستعيناً بقبائل ينبع وما جاورها في قطع طريق قوافل أمراء الحج المماليك.

---

[٣٤]-الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣٥٩، ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٥٠ـ٤٥١. المقريزي: السلوك، ج٧، ص٦٧ـ٦٨، ص١١٦.

[٣٥]-ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٦٠٤.

[٣٦]-ابن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٤٨٥، وانظر: محمد بن أحمد الحنفي"ابن إياس": بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٣ــ١٩٦٣، ج٣، ص١٥ـ١٦،ص٦٠،ص١٤٧.

ودخل في حلبة هذا الصراع أمير مكي خارج على إخوته هو أحمد بن محمد بن بركات المعروف بالجازاني، وعاشت الحجاز فترة من الصراع الحامي حتى هُزِم ابن سبع عام ٩١٢هـ.(٣٧).

وتواصلت الصراعات في مكة وما حولها بسبب الجازاني وابن سبع في هذا العام وما بعده، ونالت جُدة منها نصيباً، فما أن يخرج أمير من مكة حتى يهاجم جُدة ليسيطر على تجارتها ويجبي مكوسها ويمول عسكره ورجاله استمراراً للصراع المسلح. وقتل الجازاني عام ٩٠٩هـ في شهر رجب وهو يطوف بالبيت العتيق.

وواصل أمير ينبع ابن سبع صراعه المرير مع الحجاج والمماليك، فما كان من السلطان قانصوه الغوري إلا أن أعد عدة حملات إحداها إلى مكة لقتال ابن سبع والأخرى إلى الكرك لقتال عرب بني لام حول العقبة والأخرى للهند لقتال البرتغاليين الذين أخذوا يهاجمون بلاد المسلمين في الهند وسواحل شرق أفريقيا ثم زحفاً إلى السواحل العربية في اليمن والحجاز.

وفي خضم الصراع الذي أحدثه ابن سبع أمير ينبع، أقر السلطان في العام ٩١٢هـ الشريف هجار بن دراج أميراً لينبع. أملاً في الحد من قوة يحيى بن سبع. وفي رمضان من نفس العام تمكنت حملة مملوكية من هزيمة يحيى بن سبع وجماعته وأتباعه إلا أن يحيى بن سبع استطاع الهرب. وتواصل الصراع وفي شوال وذي القعدة هاجم جيش مملوكي ينبع ودارت رحى معركة كبيرة بين الطرفين كانت الهزيمة على يحيى بن سبع، وقد غالى المماليك في الفتك والقتل بأهالي ينبع، ولما وصل الخبر إلى القاهرة احتُفل احتفالٌ كبيرٌ بهذا النصر، وحملت رؤوس أشراف ينبع على الرماح يُدار بها في شوارع القاهرة.

وفي حملة أخرى عام ٩١٣ تمكن المماليك من الانتصار على يحيى بن سبع وأعوانه من الأعراب وحملت إلى القاهرة ثمان مئة رأس من رؤوس العرب من بني إبراهيم الذين قتلوا في المعركة، وأشهرت على رؤوس الرماح في شوارع القاهرة.

ويرى السيد محمد بن عبدالله الحسيني الشهير بكبريت المدني صاحب "رحلة الشتاء والصيف" أن من أسباب انهيار دولة المماليك، ومقتل قانصوه الغوري مبالغته في قتل أشراف ينبع حتى بنى من رؤوسهم مسطبة، جلس عليها أمراء عسكره.(٣٨)

ولما دخل العام ٩١٤هـ سعى يحيى بن سبع للتقرب من السلطان المملوكي طالباً الصفح فأرسل ابنه، فأُعطى الأمان، وأُخلع عليه، وطلب منه إحضار أبيه. وفي رجب حضر يحيى بن سبع، فأرسل إليه السلطان أماناً، فدخل القاهرة، وأخلع عليه السلطان، ومنع من التعرض له.(٣٩)

وكانت ينبع تمارس دور حلقة الوصل السياسية بين مصر ومكة والمدينة وبالتالي هي محطة عبور للأحداث السياسية ما بين مصر والحجاز فكانت المراسيم السلطانية وأمراء الحاج ينزلون بينبع ومنها ينطلقون إلى مكة أو المدينة بعد إشراك أمراء ينبع وأهلها في أي حدث سياسي لمعرفتهم بالعلاقة التاريخية الوطيدة بين أمراء مكة من الأشراف وينبع، وبقدر ما قد ينال أهل ينبع من أذى وأضرار إلا أنهم أيضاً تنالهم الخلع السنية السلطانية والهدايا، وإذا وزع على الحجاج في ينبع معونات نال أهالي ينبع منها نصيبٌ، وما يكتسبونه من نزول وارتحال الحاج بمينائهم الهام. إلا أن ميناء جُدة هو الأبرز تجارياً والأحداث السياسية والصراعات المختلفة التي حامت حوله كلها تدور حول السيطرة على تجارة الميناء خاصة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. وساهم هذا الميناء في تجارة البحر الأحمر، حيث ترد إليه السفن بالغلال كل سنة، وتقدر قيمة تجارته كل عام بحوالي ٣٠,٠٠٠دينار. وبلغت ينبع أوج ازدهارها زمن سلاطين المماليك الجراكسة نتيجة الإصطلاحات الكثيرة التي أُدخلت على طريق الحج، مما أدى إلى تدفق الحجاج، فكانت ينبع محطة برية وبحرية في آن واحد لحجاج

[٣٧]– ابن إياس: وبدائع الزهور: ج٣ ص٣١٨،٣٨٦،ج٤،ص٣٦، حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص٥١ـ٥٦.

[٣٨]–حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص٦٤، وانظر: عبدالكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص٢٤٠.

[٣٩]–ابن إياس: بدائع الزهور: ج٤، ص٤٧ـ١٣٨، العصامي: سمط النجوم العوالي: ج٤، ص٢٨٤ــ٢٨٨.

مصر والشام، وقامت بدور تجاري هام زمن المماليك، وأصبحت ينبع الميناء الثاني في الحجاز بعد جُدة إلا أن الصراعات السياسية بين المماليك والأشراف في ينبع ساهمت في الحد من دور ينبع خاصة السنوات الأخيرة من حكم المماليك في القرن العاشر الهجري.(٤٠)

ينبع في العهد العثماني:

بعد سقوط حكم المماليك على يد السلطان العثماني في مصر عام٩٢٣هـ واستقرار الأمر لهم فيها أرسل السلطان العثماني سليم خان إلى الشريف بركات أمير مكة في التسليم بالحكم العثماني، فتجاوب الشريف مع الرسالة السلطانية وأرسل ابنه محمد أبي نمي معلناً ولاءه للحكم الجديد في مصر، وبادله السلطان باستمرار الأمر في الأقطار الحجازية (من خيبر شمال المدينة المنورة إلى حلي جنوباً) فيه وفي ابنه.(٤١)

واستمرت ينبع المدينة والميناء تمارس دورها السياسي والعسكري في العهد العثماني (بين السلاطين العثمانيين وأمراء الحج وأشراف مكة)، بينما تولت جدة الدور التجاري حتى أواخر هذا العهد الذي أخذت فيه ينبع في الاختفاء والضمور-إذا صح التعبير- وبروز جدة تجارياً وسياسياً حتى دخول الحكم السعودي، فدخلت ينبع مرحلة جديدة.

ولعل أهم الأحداث التي ارتبطت بينبع في هذا العهد كانت في مجملها حول إمارة مكة والصراع المرير بين الأشراف عليها ، فقد كانت تصل الأوامر السلطانية بالتولية أو الخلع ، وبرفقة الأغا (المندوب السلطاني) الخلعة أو القفطان الذي يُلبِسه لأحد الأشراف أميراً على مكة، فكانت المحطة الأولى للقاء الخلعة والقفطان (ينبع) فيكون اللقاء والصراع والتنافس بين الأشراف على هذه الخلعة، وكما كانت تستقبل الخلعة السلطانية ، كانت تغادر من ينبع وفود الأشراف للقاء السلطان العثماني إما لرفض الشريف الجديد أو لدعمه وتوطيد إمارته ، وما يتسبب ذلك من تنافس وصراع فيحول كل طرف دون ذهاب الطرف الآخر ، فتحدث الصراعات المسلحة بين الأشراف على ثرى ينبع وقريبا منها.

فمن أهم الأحداث السياسية في هذ العهد في عام ١٠٣٩هـ وفي إمارة الشريف أحمد بن عبد المطلب، عزم والٍ عثمانيٌ على اليمن اسمه قانصوه على عزل الأمير أحمد ، فوصل ينبع وهناك التقاه الشريف مسعود بن إدريس ، وطلب منه أن يوليه مكة فوافقه على ذلك، وأعانه على ذلك وقتل الشريف أحمد بن عبد المطلب.

وفي ولاية الشريف سعد بن زيد عام ١٠٧٧هـ وما تلاها، حصل خلاف شديد على الإمارة بين الشريف سعد والسيد حمود بن عبدالله بن حسن بن أبي نمي، وفي سنة ١٠٧٨هـ انتقل السيد حمود إلى ينبع وبعث بجماعة من الأشراف منهم السيد محمد بن أحمد الحارث والسيد غالب بن زامل بن عبدالله بن حسن،والسيد أبو القاسم إلى مصر ومعهم هدية سنية إلى عمر باشا صاحب مصر فلما وصلوا إليه أكرمهم وأبقاهم عنده، وبعث الباشا مندوبا للإصلاح ،فأشيع في مصر أن الشريف حمود قتل المندوب المصري، فغضب الباشا وسجن الأشراف الذين لديه بل وقرر قتلهم ،فجرد قوة عسكرية قوامها ٥٠٠ عسكري ورافقهم ١٠٠٠ شخص من العامة والتجار،ولما دخلوا ينبع اعترضهم الشريف حمود واقتتل الفريقان قتالا شرسا أسفر عن مقتلة عظيمة في صفوف المصريين واستولى

---

[٤٠]-أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج١٦، ص٣٠٠ـ٣٠١ـ٣٦٠. ،وانظر:حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص٤٩. فهمي: نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص١٤٠. السليمان: علي حسين: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩٠ ـ ١٩١. وانظر:محمد بن حسين الحارثي: الثغور البحرية الحجازية...، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية .

[٤١]- محمد بن علي بن فضل الطبري المكي: إتحاف فضلاء الزمن: ، ج٢،ص٣٦٠، والسنجاري: منائح الكرم ،ج٣،ص٢٢٦، والدحلان:خلاصة الكلام ،ص٥٠، وسنوك:صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ج١، ص٢٠٨.

الشريف حمود على ما مع الجيش المصري، وقبض على قائدهم الصنجق يوسف بك وأولاده واتخذهم رهائن مقابل الأشراف المسجونين بمصر، وقتل من الأشراف الشريف بشير بن أحمد والشريف سرور بن حسين والشريف إلياس بن عبدالمنعم ، وبقي القائد المصري سجينا عند الشريف حمود حتى مات. ولما علم أمير مكة بهذه الأحداث جرد حملة عسكرية لمحاربة الشريف حمود وأمر عليها بلال أغا وبعثه إلى ينبع فخرج الشرف حمود من ينبع مع قدوم حملة الشريف سعد ، فاستولى بلال أغا على ينبع وأقام بها. وانتهت الأحداث باستقرار الأمر للشريف سعد بن زيد، بل وصل به الأمر أن عاقب أهل ينبع لمساندتهم حمود وقتل جماعة منهم ، وهدم السور.(٤٢)

وفي العام١١٠١هـ وفي حادثة مشابهة لما سبق، خرج الشريفان مساعد وأخوه دخيل الله أبنا الشريف سعد مغاضبين لشريف مكة آنذاك الشريف أحمد بن غالب ومتوجهين إلى مصر بهدف انتزاع الإمارة منه فوصلا ينبع وأقاما فيها وأخذا يستميلان قبائلها معهما ، حتى وصل بهم أن نادوا للشريف محسن بن الحسين بن زيد، واستولى مساعد على مؤن وحبوب لشريف مكة بينبع ، فوصل قفطان فاستولى عليه الأشراف حتى استقر الأمر أخيراً للشريف محسن بن الحسين أميراً لمكة.(٤٣)

ومن الأحداث المهمة التي ارتبطت بينبع دخول الجيش المصري في القرن الثالث عشر (في عام ١٢٢٥هـ) للحجاز لإخراج القوات السعودية (الدولة السعودية الأولى) التي سيطرت على الحجاز منذ عام ١٢١٨هـ مع إبقائها للإمارة بيد الأشراف مع فرض ونشر المنهج السلفي "المحارب للبدع والخرافات المخالفة للكتاب والسنة الصحيحة" (الذي تتبناه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب) في مكة والمدينة وتوابعهما. ولكن بعد مطالبات عدة من الشريف غالب من السلطنة العثمانية لإخراج السعوديين من الحجاز، كلفت استانبول واليها "القوي" على مصر "محمد علي باشا" الذي وجدها فرصة مواتية لتحقيق طموحاته في السيطرة على الجزيرة العربية كافة وامتداد سلطاته في ظل انشغال السلطنة العثمانية، فأعد جيشاً كبيراً بقيادة ابنه طوسون من مصر وفي شهر رمضان المبارك في مراكب بحرية ويضم فرقا من الأتراك والمصريين والشاميين وبعض المغاربة ، فنزل الجيش ميناء ينبع ودافع عنها حاكمها الموالي للسعوديين جابر بن جبارة إلا أنه لم يستطع الصمود أمام القوات المصرية المهاجمة وسيطرة القوات المصرية على ينبع ، ومنها زحفت على وادي الصفراء وجرت رحى معركة بين السعوديين بقيادة (عبدالله بن سعود) والمصريين بقيادة (طوسون) وتلقى الجيش المصري هزيمة كبيرة اضطرته للرجوع إلى ينبع والبقاء فيها لحين وصول المدد إليه ، وأخذت قيادة الجيش المصري توزع الأموال على قبائل ينبع وأوديتها ومن ذلك أنهم أعطوا كبير مشايخ حرب ١٠٠٠٠٠ ريال فرنساوي لتوزيعها على قبائله ، ونال شيخ حرب وحده ١٨٠٠٠ ريال ورتبوا له رواتب شهرية ،فدعمت قبائل حرب الجيش المصري لدى زحفه على المدينة عندما وصله مدد عام ١٢٢٧هـ بقيادة أحمد بن نابرت إلى ينبع فزحفت القوات مع قوات القبائل إلى المدينة المنورة للسيطرة عليها وكان لها ذلك ، حتى تمكنت القوات المصرية من السيطرة على الحجاز وإخراج السعوديين منه.(٤٤)

وكان لينبع – بعد جدة – دور في استقبال المعونات العسكرية من البحرية البريطانية والناقلات المصرية التي اعتادت الرسو في ميناء ينبع – حيث إن مصر خاضعة للاحتلال البريطاني آنذاك– لدعم ومساندة قوات الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين باشا ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى بمساندة بريطانيا لإخراجهم من البلاد العربية.

فقد انطلقت رصاصة الحسين في فجر اليوم التاسع من شعبان عام١٣٣٤هـ أطلقها بيده من قصره بمكة ، فكانت إيذاناً بالثورة على الحكم العثماني الذي دخل الحرب العالمية مسانداً لألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا فأصبح طرفاً رئيسيا في الحرب، فوافقت رغبات وخطط

---

[٤٢]–الطبري :إتحاف الفضلاء،ج٢،ص٨٩–٩٢، والسنجاري: منائح الكرم ،ج٤،ص٢٧٢–٢٨٢.

[٤٣]–السنجاري، منائح الكرم،ج٥،ص٩٥–٩٧، والدحلان:خلاصة الكلام ، ص١١٤.

[٤٤]–الدحلان ، ص٢٥٩، والسباعي ، تاريخ مكة،ص٥٠٥، وصلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية،ص١١٩–١٢٤.

بريطانيا وفرنسا ومطامحهم الاستعمارية رغبات العرب في التخلص من الحكم التركي الاستبدادي ، واستقلال البلاد العربية عنه، وتزامنت مع طموحات الشريف حسين في بناء دولة عربية كبيرة له ولأبنائه، فاستغلت بريطانيا مشاعر العرب العدائية تجاه الأتراك ، ومطامح الشريف حسين السياسية، فدعمت ثورة الشريف حسين بالمال والعتاد الحربي،فانطلقت القوات العربية من مكة المكرمة وما جاورها من مدن وقرى وبوادي بعد القضاء على الحاميات التركية في مكة وجدة باتجاه المدينة المنورة وقد كانت بها أقوى الحاميات التركية ، وفي طريقهم إلى دمشق .

وعن ينبع يقول لورانس: "كان فيصل لا يزال قلقاً من إخلاء قواته لمدينة ينبع فهي قاعدته الرئيسية والمرفأ الثاني من حيث الأهمية في الحجاز" وفي موضع آخر يشير إلى أن الأسطول البريطاني (أسطول البحر الأحمر كما أسماه) يتجمع حول ينبع.(٤٥)

ويذكر الشريف عصام بن ناهض الهجاري (٤٦) عن إمارة ينبع: "وكانت إمارة ينبع وأعمالها وتوابعها في الأشراف ذوي هجار بدءًا من زمن جدهم قتادة المتوفى سنة ٦١٧ هـ إلى سنة ١٣٤٤ هـ وكان أخرهم الشريف عبدالكريم بن بديوي الهجاري. وهم من عقب الشريف هجار أمير ينبع بن دراج أمير ينبع بن معزي أمير ينبع بن هجار أمير ينبع بن وبير أمير ينبع بن مخبار أمير ينبع بن محمد ابن عقيل أمير ينبع بن راجح أمير ينبع بن إدريس أمير مكة وينبع بن حسن أمير مكة بن قتادة أمير ينبع ثم مكة بن إدريس بن مطاعن ابن عبدالكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبدالله الأكبر بن محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبدالله الرضى الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبدالله الكامل المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ورحمهم الله" (٤٧)

ويتحدث إبراهيم رفعت باشا (أمير الحج المصري) في رحلته للحج عام ١٣٢١هـ بقوله: "فوصلنا ينبع غرة المحرم سنة ١٣٢١هـ (٣٠ مارس سنة ١٩٠٣م). وقد استقبلنا بالميناء محافظ ينبع ورئيس عسكرها (القومندان) بلباسهما الرسمي وحيتنا العساكر الشاهانية مصطفة على رصيف الميناء ثم أنزلت الأمتعة والمحمل إلى البر ونزلنا واحتفل بالمحمل احتفالاً عظيماً هرع إليه الناس جميعاً لأنهم لم يشاهدوا موكب المحمل قبل هذه المرة إذ كان المحمل وقت ذاك يسافر براً يمر بينبع النخل التي تبعد عن ينبع البحر مسيرة ١٢ ساعة ولا يمر بالثانية"

ويصف ينبع البحر بقوله: "ولها مرسى مبني بالحجارة ويسكنها ٧٠٠٠ نفس وبها ٨٠٠ منزل و٣٠٠ دكان وثلاثة جوامع وتسعة مساجد صغيرة ومكتب للتعليم ودار للحكومة وأخرى للبريد ومخزن كبير وصهاريج يتجمع بها ماء المطر.. – مشيراً إلى قلة المياه وحاجة الناس وعطشهم –، ويحيط بها سور به باب مخفور في الجهة الشمالية وهذا السور بناه دولة المشير عثمان باشا نوري الحاكم العادل الذي منع الأعراب من الدخول لهذه البلدة مسلحين... وكان قبل هذا السور سور آخر جدده عثمان آغا بأمر دار السعادة في سنة١١٢٦هـ وقبل السورين ،سور آخر أمر بهدمه في سنة ١٠٧٩هـ الشريف سعد صاحب مكة..وأكثر الحجاج يمرون بينبع ميممين المدينة للصلاة في المسجد النبوي ولزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم تبعا لذلك فينبغي العناية بها لأن نسبتها إلى المدينة كنسبة جدة إلى مكة " (٤٨)

---

[٤٥]–أعمدة الحكمة السبعة،الطبعة الرابعة،١٤٠٠هـ/١٩٨٠م،دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،ص٨٩،وانظر: السباعي ، تاريخ مكة، ص٦٠٦٩٣.

[٤٦]– من نسابة الأشراف البارزين ، له اهتمامات بحثية في تاريخ وأنساب الأسر الهاشمية في ينبع والمدينة بشكل خاص والحجاز بشكل عام، وساهم في إعداد وتوثيق العديد من مشجرات أشراف الحجاز.

[٤٧]–في دراسة عن (الأشراف ذوو هجار) ، منشورة بموقع (أشراف الحجاز وما جاورها) على شبكة الإنترنت.

[٤٨]– مرآة الحرمين ، ص١٢–١٤.

ثم أخذت ينبع في التدهور والاضمحلال، ولعل ذلك يعود لجملة أسباب من بينها ، إنشاء خط حديد الحجاز الذي يربط المدينة بالشام، وتوقف طريق القوافل البري المار بينبع، وتحول الحجاج إلى ميناء جدة، ونضوب كثير من العيون والآبار في ينبع النخل مما ساهم في هجرة كثير من سكان ينبع إلى المدن المجاورة.

ينبع في العهد السعودي:

وعادت ينبع للانتعاش في هذا العهد الزاهر، فانطلقت التوسعات للميناء حتى زادت عدد الأرصفة البحرية، وتوفرت آلات التشغيل للشحن والتفريغ، وتم إنشاء الهيئة الملكية للجبيل وينبع عام١٩٧٥م، التي من أهدافها تحويل ينبع إلى إحدى المدن الصناعية الهامة في السعودية، وجرى إنشاء خط أنابيب بترولاين الممتد من حقل الغوار (بقيق) على ساحل الخليج العربي شرقاً إلى ينبع على ساحل البحر الأحمر غرباً بطول ١٢١٥كم عبر أنابيب تحت الأرض، كما تضم المنطقة الصناعية عدة مصافٍ بترولية ومجمع بتروكيماوي.(٤٩). وتبعد ينبع عن المدينة المنورة بمسافة ٢٥٠ كم .



[٤٩] -أحمد الرويثي: الموانئ السعودية، ص٣٣٣-٣٤٦.